الفصلُ السادسُ
موقفُ «عثمانَ» يومَ «فتحِ مكةَ»

نصرٌ عظيمٌ:

لقدْ قدَّر اللهُ تعالى لرسوله ﷺ وصحابتهِ العودةَ في العامِ السادسِ الهجريِّ، وعدمِ زيارةِ «مكةَ» وأداء مناسكِ العمرة بعدَ «صلحِ الحديبيةِ» كما ذكرنا في الفصلِ الماضِي، وهذا جعَلَ بعضَ الصحابةِ الكرامِ يتأثرُ من ذلك، ويحزنُ؛ ولكنَّ الله ـ عز وجل ـ قدرَ الخيرَ للمؤمنينَ، ففِي العامِ السابعِ جاؤوا مكةَ، واعتمروا بكلِّ هناءةٍ وسرورٍ، وفي العام الثامنِ من الهجرةَ، وبعد أقلٍّ من عامينِ نصرَ اللَّه دينهُ، ونصرَ رسولَه والمؤمنينَ فتمَّ «فتحُ مكةَ» دونَ إراقةِ قطرةِ دمٍ، ودخلَها الرسُول منتصراً دونَ حربٍ وجاءَ بذلكَ نصرُ اللَّه والفتحُ، لذلكَ دخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجاً، جماعاتٍ كثيرةً ومرةً ثانيةً يطلبُ الرسُول ﷺ توسعَة «المسجد الحرام» هذه المرةَ عرضَ «الرسُول» على صحابتِه البيتَ الملاصقَ للمسجدِ كيْ يشتريه أحدُهم وعرضَ «الرسُول» على أصحابِ المنزِل أن يتبرعُوا به في سبيلِ اللَّه فرفضُوا واعتذروا لأنهم لا يملكونَ بيتاً غيرَه، وليسَ لديهمْ من المالِ ما يكفي لشراءِ غيرِه.

ولمْ يكنْ ثمة غيرُ واحدٍ، يمكنُ أن يحلَّ المشكلة إنهُ «عثمانُ» الذي تدخَّلَ على الفورِ فمَا كادَ الخبرُ يصلُ إلى مسامعِه حتَّى ذهبَ إلى أصحابِ هذه الدارِ الواسعةِ العريضةِ فاشتَرَاها منهمْ، ودفعَ فيها عشرةَ آلاف دينارٍ..

إنه ليسَ موقفَ الخيرِ الأولِ ولا الأخيرِ لعثمانَ، لكنَّه حبُّ الخيرِ الذي ملأَ اللَّه به نفسَه، يدفعُه دائماً لأنْ ينفقَ مالَه في سبيلِ اللَّهِ.

«جيشُ العسرةِ»:

وبعدَ «فتح مكة» بعامٍ، وفي العامِ التاسعِ من هجرَةِ الرسُول ﷺ جمعَ «الروم» قواتهم وغرَّتْهُم أنفسُهم فقرروا غزْو المسلمينَ في ديارهم، ولما سمعَ الرسُول بذلكَ نادَى في أصحابه بالاستعدادِ للخروجِ، والجهادِ في سبيلِ اللَّه، واستجاب الصحابةُ الذينَ تجمعُوا واستعدوا لهذه الحرب فكوَّنُوا جيشاً وُصِفَ بـ«جيش العسرةِ»، لأن البلادَ ساعتَها كانتْ تعاني من الجدبِ، وعدمِ وجودِ الثمارِ الكافيةِ، وكذلكَ كانَ الحرُّ شديداً وكانَ الموسمُ صيْفاً، ولكنَّ الصحابةَ أسرعُوا، وخرجوا مجيبينَ نداءَ «الرسُول ﷺ»، وأمامَ هذا الوقتِ العصيبِ، والفقرِ الشديدِ الذي يعاني منه الصحابةُ الكرامُ، فتحَ الرسُول باب التبرعاتِ كي يُجَهِّزَ هذا الجيشُ الضخمُ ولكنَّ التبرعاتِ جميعها لم تكنْ تغني أمامَ كلِّ هذا الجيشِ الكبيرِ.

ووقفَ الرسولُ ﷺ أمامَ صفوفِ الصحابةِ فقال:

– «مَنْ يُجَهِّزُ هؤلاء، ويغفرُ اللَّه له؟».

إنه يبشِّرُ الذي يجهِّزُ الجيشَ كلَّه بمغفرةٍ من اللَّهِ، وما كادَ «عثمانُ» يسمعُ نداءَ الرسُول ﷺ، حتَّى أسرعَ فأخرجَ مالَه الذي جادتْ به نفسه عن طيبِ خاطرٍ.

لقد تبرَّع بعشرةِ آلافِ دينارٍ صبَّهَا بين يدَي «الرسُول ﷺ» فأخذَ «الرسُول» يُقَلِّبها وهو يقولُ:

– «غفرَ اللَّهُ لكَ يا عثمانُ ما أسررتَ وما أعلنتَ، وما هو كائنٌ إلى يومِ القيامَة».

ويا لَه من دعاءٍ!

إنه الرسُول يدعُو لـ«عثمانَ» بأن يغفرَ اللَّه له ذنوبَه جميعَها، ما خبَّأه منْها، وما أعلَنَه، وما بعدَ ذلك حتى يومِ القيامَة، ما أسعد «عثمانَ» بهذا الدعاءِ، ما أسعَدَه بهذهِ الكلماتِ من فمِ «الرسُول ﷺ» وهو مستجابُ الدعاءِ.

وكذلكَ قدَّم «عثمانُ» لـ«جيشِ العسرَة» تسعمَائة وأربعينَ بعيراً، وستينَ بعيراً أتمَّ بها الألفَ، ويقولُ «عبدالرحمن بنُ عوف»:

– «شهدتُ رسُول اللَّه وقد جاءه عثمانُ بن عفانَ في جيشِ العُسْرة بسبعمَائة أوقيةٍ منَ الذهبِ».

هل قدَّم «عثمانُ» ذلكَ فقطْ؟ وذلكَ كثيرٌ، لا.. إنه لم يتركْ شيئاً يحتاجُ إليهِ الجيشُ إلا وقدَّمَه، ومضَى الجيشُ حتى وصلَ إلى مكانٍ يُدعَى «تبوك» فوجدَ «الرسُول» أن جيشَ الرومِ قد انسحبَ لما علمَ بخروجِ «الرسُول ﷺ» لمحاربتهِ، وكفَى اللَّه المؤمنينَ القتالَ، لقد نُصِرَ النبي ﷺ بالرعبِ مسيرة شهرٍ فحمد «الرسُول» ربَّه أن جعَلَ خوفَه في قلوبِ أعدائِه كافياً لأن ينسحبُوا قبلَ ملاقاتهِ، ومَنْ هذا العدُّو؟ إنهم الرومُ إحدىَ القوتينِ العظميينِ في ذلكَ الوقتِ.

وهكذا عادَ الجيشُ الإسلاميُّ بكلِّ عُدَّتِه وعتادِه إلى «المدينة المنورة» وبكلِّ ما أمدَّه بهِ «عثمانُ»، فهلْ استرجَعَ من ذلكَ كلِّه شيئاً؟

هل أخذَ درهماً؟ أو بعيراً؟ أو فرَساً؟

وكيفَ يفعلُ «عثمانُ» ذلكَ؟! لقدْ ضحَّى في سبيلِ اللَّهِ ومنَ اللَّهِ وحده ينتظر الثوابَ[1].

١- خلفاء الرسول -خالد محمد خالد. ص٢٥٣.